قطار نصف الليل

بقلم : جاذبية صدقى

صديقى العجوز ، قطار الصعيد هذا! يقول لى اشياء واشياء وانا قابع فى ركنى العتيد من احدى عرباته . كل خميس تجدنى هناك . اصغى له بلا ملل وهو يحملنى الى صغارى فى العاصمة من القرية النائية الناعسة فى اعماق ربوعه ، حيث اعمل موظفا متواضعا فى تفتيش ضيعة تابعة لوزارة الاوقاف. ربما تسألنى لم لا اصطحب صغارى هؤلاء وامهم معى ، حينئذ ساجيبك ان « صغارى » هؤلاء اصبحوا رجالا الآن وشبابا يطلبون العلم فى الجامعة — الفتيان منهم والفتيات . ومع ذلك اسميهم « صغارى » — هل يلومنى احد؟ لن يغير شيئا من وضعهم هذا . ثم انهم عند ما كبروا وشبوا عن الطوق ، كبرت انا ايضا . فالنسبة محفوظة . عجيب والله امر « الصغار » هؤلاء وما يفعلونه بنفوسنا ! خذنى مثلا : اننى لم اضق يوما بنفقاتهم .. وطلباتهم .. ومشاجراتهم .. ومصالحاتهم .. ومتناقضاتهم — حتى آراؤهم التى يفرضونها على ، لم اضق بها . ولا اضيق اليوم ، مع ان ظهرى قد انحنى وكسانى المشيب — فى شعرى المشيب، وفى قسماتى . لكنه قط لم يمس روحى . شابة ، هى هى . لقد كانت — روحى هذه — صبية تتقافز .. وتلعب الكرة « الشراب»فى الحارة .. وتهوى حلوى « المضاغة » .. واراجيح المولد ، عند ما كان « صغارى » يتقافزون ويفعلون هذه الاشياء كلها . ثم استوت روحى شابة متفتحة ... متطلعة .. مشرئبة ... منطلقة .. تتدفق بآمال وحيوية — مثل ابنائى . والآن روحى فى الجامعة — معهم ايضا . خطوة خطوة من حياتهم احياها معهم ، تنعكس على انفعالاتهم وانطباعاتهم واتجاهاتهم . اعيش شعورا شعورا كابدوه ... وتتبلور فى عينى دموع براقة كفصوص دموعهم ... واتذوق ابتسامة ابتسامة تطلقت بها وجوههم .. واستمتع بكل احساس نعموا به .. واضحك مع كل ضحكة تفجرت عنها قلوبهم الفتية . خير اكسير فى الدنيا هذا،صدقونى ! حياتى حلوة .. متدفقة .. متلونة .. متجددة ابدا لاننى اردتها هكذا ، كانما فى اعماقها عين خفية .. عذبة .. فوارة .. تغرغر بحيوية تمدها بها !

فكان ان تركتهم فى العاصمة . وارتعش بفرحة كبرى تتجدد كل خميس وانا اصعد الى القطار ليحملنى اليهم . واقبع فى مقعد واحد لا اغيره — اعنى لم اغيره طوال العشر سنوات التى عشتها وحدى . ثم اغمض عينى ، أولا اغمضها وانا الملم فرحتى حولى كأنها رداء سابغ واسع فاخر وثمين يلفنى من

ثمة رأسي الى أصبع قدمي الصغير ! وأصغى للضجيج الذى يصنعه صديقى القطار العجـــوز . من فرط امتنانى وفرحتى ، أصغى له . لعبة هذه ابتكرتها بينى وبين نفسي لتذوب الســـاعات الطويلة . حقا ثرثار هو ، صـــديقى القطار ، لكننى لا أضيق بثرثرته تلك التى ترن فى أذن غيرى صلصـــلة سلاسل لاأكثر .. ودمدمة عجلات ... وصفير .. وشهيق .. وزفير وهـــو يلهث مزمجرا يحملنا فى قلبه .. أو على قلبه .. ويجرر وراءه عرباته العجائز المتهالكة مثله والتى تتعلق متشـــبثة بعنقه هكذا ! عربات تكاد تحجـــل لا تجرى من فرط عجز ، ثم ان من شبابيكها ما لا مصراع له . فتبدو كأفواه هتمـــاء فاغرة ، عن كبر او عن ارهاق وهى تلهث وتبتلع الهواء ابتلاعا !

فأبتسم فى ركنى ، وتتسع ابتسـامتى وانا اتخيلها مشاجرة .. تلك الصلصلة وتلك الجلبة والضوضاء ... بين القطار وبين نسائه الكثيرات اللاتى ربط نفسه بهن ايام الشـــباب .. وغروره .. وعنفوانه .. واندفاعه ، فجثمن الآن على انفاسه فى كبره يمسكن بتلابيبه لايفلتنه! وبالفعل . كثيرا ما تهاوى المســكين ، بمضى الليل بنا الى جوار قناة ، كسير البدن والنفس كأنما غشي عليه .فيلتف حوله مسئولون بقناديل كاشـــــفة ، يتحسسونه .. ويصغون لنبضاته .. ويسقونه ماء .. ويريحونه حتى يبترد ويسترد قوته ــ تماما مريض وهـــؤلاء اطباء .

واليوم كاد يفوتنى ، لكننى ركضت خلفه وركضت حتى لحقت به . فقفزت اتشبث بآخر عربة . وسرت عبر ممراتها الى عربة أخرى .. ثم أخرى .. ثم اخرى ، اتعثر فى سلال وغرارات وقدور تملأ خياشيمى منها رائحة الجبن المعتقة ب « المش » ... وأرغفة « البتـاو » بالحلبة ... وفحول البصل الصعيدى المعتبر . رائحة نفذت كسحب دخان قوية غير مرئية من خياشيمى الى خلايا دماغى ، تتعلق بها وبثيابى ــ تبصمنى، لتفوح منى بدورى ! ومع ذلك ابتسمت لها . لم اغضب . وهل يغضب المرء من معارفه ، عند ما يحيونه بطريقتهـــم الخاصة ؟ وتلك الروائح لى بها معرفـــة هى تاريخ حياتى . لن اتنصل منها . لن اخجل ــ احبها ، احبها ! لى معهـــا ذكريات غالية سعيدة ، تبعث دفئا فى اوصالى .

كانت تلك الافكار الهائئة تملأنى برضا ينشق له فمى عن ابتسامة لاتغيب، وانا اقفز فوق « مشنة » .. او اتفادى الارتطام « ببلاص » ... أو احتضـــن غرارة ضخمة تسد الدهليز فألف حولها بحنكة ودراية . حتى وصلت الى ركنى المعتاد فى حجرة لها باب زجاجى . فما كدت افتحه حتى لطمتنى رائحة اخرى غريبة عنا وحادة .. ونفاذة ! يا الهى! ماذا دهى يومى ؟ اللهم اجعله خيرا !

ترنحت ، يدور رأسي كأنما تربصت بى قبضة غادرة فى الغبشة السادلة . غبشة لا يخفف منها سوى كوب نور يعلوه تراب سنين معلق فى الســقف المقوس ــ نور اصفر سقيم هـــزيل يخبو ويضيء .. ثم يخبو ويخبو حتى يكاد يخمد .. ثم فجأة يضيء .. ثم مرة ثانية من فوره يخبو ، كأنه عين تقاوم النوم .

فوضعت سلة البيض الصغيرة التى

احملها هدية لأولادى عند قدمى ،حيث ربضت فى دعة واستكانة كالكلب الاليف . على حين ارتميت انا انزوى فى ركنى . فما لبثت ان سرت فى سعادة وطمانينة وانا ادور بعينى فى الحجرة الضيقة المألوفة . فتسمرتا ... عيناى هاتان ... على الرف المعلق فوق المقعد المقابل . فقد كان يطل على منه راس ضخم لغزال محنط بأحماض اغلب الظن انها هى التى تنفث تلك الرائحة الغريبة اللاسعة . راس تتلوى قرونه طويلة نافرة كأنها ثعابين كثيرة برزت الى نصفها من كهوفها ثم فجأة تحجرت باشارة من ساحر، كما فى احدى الاساطير الاغريقية المولع أنا بقراءتها . او كأنما تلك القرون غصون متفرعة لشجرة غريبة نادرة تنبت من قلب جمجمة الغزال !

وكانت على المقعد عينه ... تحت الرف براس الغزال المحنط .. صرة ثياب حجز بها صاحبها لنفسه مكانا . لابد انه مكافح مثلى ، امتصت شبابه المسئوليات ولعقت صحته الهموم . تطالبه اولاده بأشياء عجيبة واشياء ! انا نفسي طالبنى اولادى ذات مرة بثعلب حى ليربوه فوق السطوح ! تصوروا ! ومرة اخرى : مجموعة عقارب لابنى طالب الصيدلة . ومرة بنتى قالت لى :

— « والنبى يا ابى ، هات لى معك الخميس المقبل انثى قنفذ — صاحبتى « نعمات » عندها سلحفاة فى حجم الارنبة ، و « ميرفت » عندها افعى بلا اسنان تخيف بها ضيوفها ونضحك كلنا ! »

هكذا الابناء . الله فى عونه ، هذا الاب الجالس امامى ! والله قلبى سبقنى اليه يرف حوله ، قبل ان أراه . لابد انه الآن وسط الزحام فى الخارج يودع اهله، او يشترى لنفسه سميذة وبيضتين . ثم يعود ليقرضهما فى ركنه كالفأر . او لعله عود قصب ، ذلك الذى ذهب يشتريه . فيكسره على ركبته الى نصفين ، ويمد يده الى .. زميله فى السفر ... بالنصف الحلو الذى تتفرع منه الجذور . فأهل الصعيد يؤثرون الضيف او عابر السبيل على انفسهم . لكننى بالطبع سأرفض — تأدبا ، واكتفى بعقلتين من نصف العود العلوى حيث تقل الحلاوة . لكننا سنهنأ بصحبة بعضنا البعض .. ونحن نمتص عصير القصب بقدر ما تسمح أسناننا .. ونلقى بالقشور على جريدة نبسطها تحت اقدامنا ، ثم نكورها ونقذف بها من النافذة فى وجه الليل والقطار منطلق — ولا من شاف ولا من درى ! وسوف اعطيه انا نصف الدجاجة التى حمرتها لعشائى « أم اسماعيل » التى تخبز لى وتطبخ لى ، وتغسل لى . وسوف يرفض بدوره ، لكننى سوف الح عليه الحاحا شديدا حتى يقبل . فأناوله معها رغيف « بتاو » ليضعه على ركبته ونصف الدجاجة فوقه ،كأنه صحن . ونأكل.. ونسعد .. ويمر الوقت .. ونحن نتضاحك ونحكى نوادر عن أطفالنا — خاصة عن « عادل » اصغر ابنائى . والله لو اننى اشتريت مثل راس الغزال الذى يطل على من فوق الرف المقابل ، لجاء العفريت الصغير وعلق فى القرنين الرهيبين حبلا وتارجح عليه ... !

فضحكت .

ضحكت وحدى من الصورة التى

رسمها خيالى .. والدنيا ليل .. وقطار الصعيد يزمجر ويشق الليل والمزارع والسكون .

وفجأة ،ذاب ضحكى . لعقته عن وجهى حقيقة قائمة — كيف يشترى الرجل عود قصب أو بيضتين وسميذة، والقطار منطلق هكذا منذ ساعة ؟ اى والله ، صحيح ! كيف ؟ وممن ؟ ... وقد خلفنا المحطة وراءنا بأميال ! ثم خطر لى خاطر ، عادت معه ابتسامتى لعله فى دورة المياه ! ولكن ، ساعة بحالها ؟ ولم لا ؟ لعل معه مجلة مسلية — هكذا مزاج بعض الناس !

فهززت كتفى . مالى أنا وما للناس؟ واخرجت دجاجة «أم اسماعيل» ونزعت عنها الجريدة التى لفتها بها المراة مع رغيفين من « بتاو » .ورحت آكل ، اعمل اسنانى المتنائرة فى اللحم الطرى .. هانئا متلذذا .. اسلى نفسي بنفسي واحكى لها حكايات . حتى شبعت وحمدت ربى . لكننى لم انسه. تركت له نصف الدجاجة لعشائه عند ما يجىء — زميلى المجهول فى السفر . ثم لملمت العظام التى تخلفت من نصيبى فى الدجاجة ووضعتها بعناية داخل الجريدة المزيتة وكورتها لالقيها من النافذة . ولكن تلك النافذة اللعينة لم تحترم كهولتى وضعف ذراعى .قاومتنى بعناد حتى ضقت بها . فوقفت وسط الحجرة حائرا ، امسك بكرة الورق بين كلتا يدى كأننى طفل كبير ساذج . فأطعت اول دافع راودنى للتخلص من تلك اللفافة :

انحنيت انحناءة خفيفة والقيت بها تحت المقعد المقابل ! ومن فورى ،ندمت. غشينى شعور بالذنب قوى اقلقنى . فانحنيت اكثر ، اتحسس كرة الورق تحت المقعد لاستردها والقيها بمعاونة خادم القطار من النافذة او فى سلة مهملات ، ان كان لديهم واحدة . اى شيء ، فقط امحو اثر ذلك الاندفاع الذى جعلنى اتصرف كتلميذ ابتدائى يتشيطن. لكن الظاهر ان اللفافة كانت تدتدحرجت تحت المقعد بعيدا عن متناول يدى . ومع ذلك لم يرحمنى ضميرى .فارتميت على ركبتى...وبخدى على الارض... رحت احدق فى الظلمة تحت المقعد .

فلما اعتادت عيناى الظلمة واستطعت ان اميز المرئيات، دارت بى الدنيا دورانا عنيفا ..! مادت الارض تحت ركبتى كأننى راكع على عجين ..!

فقد تسمرت عيناى فى عينين مذعورتين .. هناك .. تحت المقعد... حيث يختفى صاحبهما !

ولست ادرى كم ظللنا من وقت هكذا : هو منبطح على بطنه كأنما سقط من عل فى حيز ضيق ضيق لايسع اية حقيبة مهما صغر حجمها ، وانا سأجد كأنما اصلى — فقط خدى هو الذى على الارض لا جبهتى !

واخيرا .. بعد لأى .. عند ما جمعت شتات نفسي المبعثرة من وقع المفاجأة.. وهممت ان أتراجع — بل أننى فعلا اتيت بحركة لانهض ، انطلقت يده كالسهم واطبقت على ذراعى تشلنى مكانى .

يا سيدى عبد الرحيم ياقناوى — مدد!

فتحت فمى لاصرخ .. لاصيح .. لانادى احدا ما على الاقل ، فلم يخرج لى صوت ! فأنا رجل على قدر حالى... وفى حالى .. لم الق من قبل فى حياتى موقفا كهذا — ولا اقل بكثير من هذا !

سنوات عمرى التسع والخمسون كلها.. وسنوات عملى وكفاحى الخمس والثلاثون ... وسنوات زواجى التى هى توام لسنوات عملى — كلها كانت سنوات هادئة راتبة كأنها بحيرة .بحيرة فى قلب صحراء بعيدة .. بعيدة .. مجهولة الا من قليلين ، يردون على عينها يشربون .. ويأكلون .. ويستريحون.. ثم يشـــدون الرحال ويضربون فى الارض — هؤلاء هم أولادى،خلال سنوات زواجنا الاولى كان يرد الينا وافد جديد كل عام حتى اصبحوا دستة ! فبسطنا انا وزوجتى الطيبة المصلية اكفنا الى السماء نحمدها ونتوسل فى دعـــة ان تتفضل علينا بالرزق ، لا بالولد — حتى لا تجف البحيرة ويهلك واردوها ! وقد استجابت لنا السماء واكرمتنا بالستر والصحة والابناء الاثنى عشر وحسب ! توظف منهم من توظف وتزوجت منهم من تزوجت ، ولله الف حمد وشكر . طبعا ، ستر لبنات حلو . وتهادت سفينتنا كنسمة رقيقة ، قد لا يشعر بها احد لكنها هناك ... فى المؤخرة .. فى الظلال ... نعمل فى صمت ورضا وتواضع .

وهكذا . عشنا انا وزوجتى فى أمان. انا قصير القامة ، وهى اقصر منى . انا مسالم ، وهى مسالمة اكثر منى .رجائى الهامس عندها امر ، وحاجتها التى لا تجاهر بها استحياء بل تفضحها بها عينها ، عندى انا واجب مقدس اذا اقترحت اقتراحا — مجرد اقتراح ، التقطته هى التقاطا ، تصغى لى مطرقة كأنها كلمات تأتيها من عل وتقول لابنائها :

— « ابوكم قال هذا ، لابد من تنفيذه ! »

ويطيع ابناؤنا .. ويكبرون .. وينجحون ..ويسعدون ... ويسعدوننا معهم .

فماذا سيفعلون الآن بعد موتى — بالاصح ، بعد مقتلى ؟ فطبعا سيقتلنى هذا الرابض فى الظلام تحت المقعد .. فى قطار نصف الليل ... والصعيد حولنا رهيب غامض ... والليل كحل ... وضوضاء العجلات تئد اية استغاثة ... واهل القطار مجهدون نائمون تائهون لاهون عنى وعن مأزقى!

فأغمضت عينى — تماما طفل يصد عنه خطرا بغمض عينيه ! ربما كان دورا هذا الذى شعرت به ، ربما كان لاننى فعلا اريد ان امحو..وان لحظات.. هاتين العينين المرعبتين اللتين ترمقانى هكذا وتشلاننى مكانى ، كأنى عصفور فى حضرة ثعبان ! .

ثم ... يا للهول .. ما .. ما هذا ! انه بدا يزحف خارجا !

تقهقرت سريعا ، أزحف بركبتى الى الخلف .. وعينى فى عينه معلقة ... ويده مطبقة لم تزل على ذراعى !

فلما استوى واقفا على قدميه ، كدت اهوى انا من طولى ! تخلخلت ركبتى كأننى مريض منذ سنوات . ووقفت جواره اكاد لا اصل الى كتفه ، مطرق كتلميذ مذنب. لكننى رفعت راسي بسرعة عند ما سمعته ينفجر باكيا ! يبكى ؟

لسانى عقد ، لكن قلبى رق له . فتى كان لاكثر — فى مثل عمر « صفوت» ابنى . عمر يدور حول العشرين .لابد

انه راكب القطار بلا تذكرة . مسكين يا ولدى ! ظروف دنيا . لا ضير . فأخرجت لفافة بيد ، لا تسألونى عن مدى رعشتها ! لكننى تمالكت وقد سرى عنى شيئا . لا ، لم اكلمه .ولا كلمة . لم اضمن نفسي . فقط اشعلت اللفافة وعرضتها عليه فى صمت . فمسح وجهه الغارق فى دموعه بكلتا راحتيه المبسوطتين ، ثم تناول اللفافة منى بلهفة وان ارتعشت اصابعه هو الآخر .وراح ينفث منها حلقات من دخان تكاثفت متجمعة بسرعةفىجو الحجرة الضيقة— حلقة .. وراء حلقة .. وتلحق بالاثنتين حلقة ثالثة ورابعة ، فى تشكلات استعراضية : تتكور .. وتنبسط .. وتنبعج .. ثم تتلاشي ، كأنما تلهو . وهو يتفرج عليها . ثم القى اللفافة على الارض قبل أن تنتهى وعركها بقدمه . والقى بنفسه على المقعد — يلهث ويلهث كأنما هوقادم منمشوار بعيد... مبهور الانفاس ... مشعث الشعر .. زائغ النظرات...مشتت الاعصاب... منهار تمام الانهيار !

فارتكنت الى الجدار من فرط دهشة

عقدت لسانى .. وتفكيرى.. ومنطقى. تعقدت بدورى ذراعى على صدرى ، ارمقه فى انبهار . ومرة ثانية ،تخاذلت ركبتاى تتخليان عنى . فاستنجدت فى سرى بجميع أولياء الله الصالحين وقرات لهم الفاتحة . ثم بدا لى فجأة أن اطمئن على حلقة مفاتيحى — مفاتيح فىعهدتى. ربما تكون قد انزلقت من جيبى عندما اندفعت اركع بلا روية لابحث تحتالمقعد عن كرة الورق بعظام الدجاجة — شركتى تلك الرعناء ! القت بى فى ذلك لغبائى . يارب ، يارب : النبى حبيبك ، نظرة !

هنا ابتسمت عند ما اطمأننت وقد ارتطمت يدى داخل جيبى بحلقة المفاتيح، وانشرح صدرى لصلصلتها .

فكانت تلك الحركة القاضية !

ارتمى الشاب على ركبتيه امامى ، يضم قبضتيه تحت ذقنه فى قوة وتوتر حتى برزت عقل اصابعه شاحبة قد نضب منها الدم ، وهو يبتهل ويتوسل ويضرع :

— « حنانك ، سيدى ! رحمتك بى ! حنانك ، سيدى ! »

فلم أجد صوتى .

حنانى انا ؟ رحمتى به — انا ؟ من منا المذعور ؟

... وهو مسترسل وصوته ابح مجنون من فرط ذعر :

— «سوف اسلمها اليك — البضاعة! كلها ، كلها — خذها ! هاهى ذى كاملة غير منقوصة ! لم تمسسها يد ! لم انتقص منها جراما واحدا ! » جرام ؟

بماذا يهذى هذا الفتى ؟

لم افهم . ولم أخف عنه جهلى . فجأر :

— « آه ... تماما انت ، أنت تماما كماقالوا لى عنك : تدعى البلادة والغباء وتنكر شخصيتك العظيمة الخالدة .. دائما .. ولآخر لحظة ! »

فدفعت طاقيتىالى الامام على جبهتى، لحك قفاى فى حيرة . نسيت احكى لكم

انى احتفظ دائما بطاقية « كستور » فى جيب سترتى لادفىء بها راسي أثنـــاء السفر . أم الاولاد الله يسترها لا تنسي ابدا ان تدبر لى نصف متر من كســوة الشتاء لعمل هــذه الطواقى التى لاغنى لى عنها فى رحلاتى كل خميس .

دفعت طاقيتى على جبهتى ، احــك قفاىفىحيرة واحكهشاردا . شخصيتى عظيمة وخالدة ؟

فعالجت التفاهم معـــه . تنحنحت لاستجمع شجاعتى ، وما كدت ابدا :

ــ « والله يا بنى ... »

... حتى قاطعنى ، يزحـــف على ركبتيه عند قدمى ويرفع لى وجهـــه المتقلص من ذعر :

ــ « اليست تلك صلصـــلة القيد الحديدى الــذى تحتفظ به فى جيبــك للقبض على أمثالى ؟ »

فصرخت بجزع :

ــ « قيد حديدى » وازدردت ريقى بصعوبة .. «فال الله ولا فالك يابنى!» ثم ضممت اصابعى فىطاقة اهزها تحت انفه .. « والنبى الله يهــديك يا بنى ويجعل هذه الليلة تمر بخير : كف عن هذا الكلام الرهيب ! لم هــذه البشرى المخيفة ! أوقعت قلبى ، الله يسامحك !

واستدرت لأجلس وقــد كان يغمى على . لكنه انقض يحتضن ساقى وهو راكع أمامى حتى كدت أتدحرج فوقه . فلما شعرت بذراعيه قويتين كأنمـــا كبلنى بحبل ، تلوت الشــهادة فى سرىّ مستســلما وروحى فى حلقى تتحشرج تكاد تفر ، وقد تأكد لى ان ساعتى دنت! هذا المعتوه سيقتلنى ويبتم صــغارى !

فصحت بأعلى صوتى من حلاوة الروح :

ــ « يارب يا معين ! .

ودفعت الفتى عنى فى محاولة اخيرة يائسة . فتركساقى لكنهانقض يختطف يدى يلثمهما ويثثمهما بجنون ويمــرغ عليهما ، وجهه وعيناه مغلقتان تسح منهما دموع ساخنة لاسعة . ثم سجنهما .. يداى المعرقتان الضعيفتان بين قبضتيه الجبارتين اللتين تشــبهان كلابتين من صلب ، وراح يجأر فى ضراعة :

ــ « استحلفك بكل غال يا سيدى الا تتلاعب بأعصــابى اكثر مما فعلت ! انك أبرع من اى ممثل فى هذا العالم ــ هكذا قالوا لى ! تدعى التخــــاذل والشيخوخة والضعف ، ثم تنقض ! ولا يخيب انقضاضك ابدا ، ابدا اننا كلنا .. ارباب تلك المهنة ... نرضع مع لبن امهاتنا اسلوبك الفذ الذى لا يطيش ابدا فى الايقاع بنا ! اسلوب استاذ ضليع فى حقله متمكن من فنه بفضــل علمه الغزير !

علم غزير ؟ انا « ابو صبرى » ؟ علم غزير ؟ هززت كتفى . والله راس مالى لا يزيد عن ايمان وامانة ، لذا سلمونى مفاتيح المخازن فى الضــيعة التابعة لوزارة الاوقاف فى «كفر ابو طشت» !

فحاولت تصحيح معلوماته :

ــ « يا بنى انا رجل على قدر حالى ! انسان متواضع تجد مثلى آلافا يكدحون ويعملون جاهدين فى تربية حفنة ابناء تربية طيبة قويمة صــالحة لننفع بهــم الوطن ! »

... وهو على حاله ، كأنه اصــم

لا يسمع ، يهذى ويهـــذى كأنه فى أسر حمى خبيثة حلت عقال لسانه :

ــ « تماما ، تماما : انت ، بلحمــك وعظمك ! معلوماتنا عنك تفيد بأن هذا طبعك : تكران نفسك لن يتعرف عليك ! سيدى اقبض على من فورك وارحنى ! وقوع المصيبة ولا انتظارها ! بالله عليك كف عن لعبة القط والفار هــذه التى تلعبها معى منذ وطئت القطار ! لقد تفتتت أعصابى وتناثرت هباء وهلكت تماما من فرط توتر وترقب ورعب طوال الرحلة من البحر الاحمر .. عبر الصحراء .. ثم هنا عندما اندسست بين المسافرين فى قطار الليل فأوقعنى سوء حظى فى الحجرة عينها معك ــ من لا أخشى فى الدنيا ســـــواه ! من لم يحذرنى قومى الا منه ! »

ثم رفع رأسه عن ركبتى حيث كان يمرغ وجهه عليها ويهذى ويهذى ــ رفع رأسه ليتطلع لحظة خـــاطفة من خلف زجاج النافذة ، وحبـــات كبار من عرق تلتمع وينضح بها وجهه مع كل خلجة من خلجاته . ثم صرخ بى :

« ها هى ذى أضواء محطة العاصمة تبدو بريك ضع حدا لعذابى !

أعرف أنى هالك معــك ــ هالك ! أعرف الا فائدة من مقاومتك !

أعرف أن قوتك بقوة عشرين ! أين القيد الحديدى ؟ أين ؟ هاهما يداى ــ كبلهما ! خذهما ! خذهما !

وكان القطار حينئذ يندفع داخلا اطار المحطة وهو يطلق صفيرا طويلا ظافرا ، كأنما أتى بما لم تأت به الاوائل !.

. . . والفتى يغرغر بصوت متحشرج كأنه جمل يذبحونه .

«اقبض على ، وارحنى ! سأسير معك فى هدوء ! فـلم تعد بى أعصـــــاب ! هدمتهـا أنت بهــدوئك وبرودك : تأكل وتضـــطجع لحظات .. ثم تغفو .. ثم تصحو .. وتتحرك ببساطة وحرية وأنا أتلوى تحت مقعدك ! هاهمـا يداى ــ كبلهما ! خذهما ، خذهما ! ! »

فتلقفت يديه بين قبضتى كلتيهما ، حتى يكف عن الصـــياح هكذا ! والتفت عنه وعن هذيانه ، ألصق أنفى بزجاج النافذة أحملق بلهفة فى الوجوه على الرصيف لعل أحدا من أبنائى جاء يستقبلنى اليوم ، فيخلصنى من هذا البلاء !

وما كاد القطار يهدىء من ســـــيره اســـتعدادا للتوقف ، حتى فتــح باب حجرتنا وسدت عتبته شرذمة من رجال الشرطة وعلى رأسهم ضابط .

وقد درت على عقبى بسرعة والضابط يقفز ويلقى بنفسه علينـــا ويتلقف يدى الفتى منى ، ثم يطبق على معصميه بقيد حديدى غليظ ــ فى سرعة أسرع من مروق الخاطر ثم هذا كله !

ثم التفت الضابط الى مبتسما :

ــ « أقدم لك بالغ الشكر يا أستاذ أستاذ . »

فتحاملت وضربات قلبى تصم أذنى ، أضيف :

ــ «محسوبك» مدبولى البسطويسى أمين مخازن تفتيش » كفر أبو طشت !

فشد الضابط على يدى بقوة وامتنان :

ــ « لقد ساعدت العــــدالة لتأخذ

مجراها بمساعدة اكيدة فعالة بذكائك الفذ وبفطنتك الرائعة وبسرعة بديهتك وشجاعتك الخارقة ! »

... وانا اربت صدرى ، مطرقا :

— « العفو ، العفو ! لاشكر يابنى على واجب » !

فأكد بصدق واخلاص :

— « صدقنى ، لولا انت لافلت اللعين ، ولما تم القبض على اخطر تاجر مخدرات ارهقنا سنين طويلة ! »

فتأتأت اتأتىء :

— « تاجر .. ما .. ماذا ؟ هو فتى فتى وحسب .. و .. » فقاطعنى :

— « فتى ؟ انه فى الثامنة والثلاثين ويبدو وكأن لم يتعد العشرين — وتلك ابرز صفاته ! »

ثم أشار الى جنديين :

— « هاتوا البضاعة ! »

فاستأذنت الضابط وارتميت على أقرب مقعد ، انكمش والملم ساقى تحتى كأنهما طفلى المذعورين — واوصالى مفككة .. وريقى جاف .. وعرق بارد غزير يغرقنى . وكادت عيناى تبرزان من محجريهما واحد الجنديين ينزل رأس الغزال عن الرف ويضربه «بالسونكى» لينشق الجلد المفرع عن « رزم » المخدر المهرب . ثم انثنى على الصرة التى ظننت بها ثيابا .

وعبقت الحجرة بالرائحة النفاذة الغريبة .

فرمانى المجرم بنظرة كالطلق النارى ، يفح من بين أسنانه :

— « اذن لم تكن تكذب على بشيخوختك ووهنك ! لست اذن « بحراوى »، المخبر السرى العربى العالمى الشهرة ! »

فضحك الضابط وهو يتأملنى :

— « فعلا ، تشبه له انت جدا ! الا انه الآن فى « سكوتلانديارد » التى دعته ليلقى على رجالها محاضرة عن اسلوبه الفريد الذى ابتكره ويتبعه فى تفهم نفسية المجرمين وفى تعقبهم — فينجح دائما رغم ضآلة حجمه وقصر قامته .. وضعفه البادى ! »

... وانا فاغر فمى كالمعتوه ، ادير عينى بين المجرم والضابط !

وعندما غادرتنى القافلة الصغيرة . التفتفحوى الضابط ، يكرر شكره باسم القانون ثم الح على :

— « لابد أن تتوجه غدا الى المحافظة لتتسلم جائزة مالية كبيرة لمعاونتك لنا فى ضبط كميات المخدر الهائلة تلك ! »

فطار بالى الى بنتى رقم أربعة التى جاءها خاطب لكننا اضطرنا للاعتذار ، نتعلل بأمور كثيرة الا الحقيقة — مع ان البنت فى عزها ، والشاب متعلم وابن حلال !

وعندما تخيلت فرحة امها لحظة تسمع منى بالنقود التى هبطت علينا من عند ربنا ، هتفت فرحان جذلان :

— « والله رزقك فى رجليك يا « بدرية » يا بنتى — جهازك حضر ! » .

الم اقل لكم منذ بدء الكلام انه صديقى العجوز — صديقى جدا ، قطار الصعيد هذا ؟